العرب
الأحد 2021/09/05
السنة 44 العدد 12170

استدراك متأخر: رسالتي إلى الماضي أم إلى المستقبل؟

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

قبل أيام مرّت عليّ مقالة قديمة لفنان تشكيلي عراقي راحل. كتبها عام 2004 يخاطب فيها نفسه. لا يخاطب ذاته الحالية، بل تلك الذات الشابة التي تركها منذ عقود. فهمت لاحقا أنها كانت مقالة في عدد خاص من مجلة ثقافية كتب فيها عدد من المثقفين والفنانين لذواتهم الشابة.

لم تكن المقالة عميقة، لكن فكرتها كانت هي العميقة. ماذا نكتب لأنفسنا لو أتيحت لنا فرصة الحديث إلى ذلك الشاب وتلك الشابة بعد مرور السنين؟

سيقول البعض إن أكثر ما سيضج لدينا لنكتبه هو "الاستدراك المتأخر". قائمة تحذيرات من الزلات التي تنتظرك في الطريق أو المنعرجات غير المناسبة في مسار الحياة. أغلب هذه المطبات غير مهم. الأكثرية يعيشون حياة سوية، وقلة القلة من الممكن أن يقرأوا مقالي هذا وهم في السجون.

تلك المطبات لم تعرقل مسيرة الحياة إذن، فما الفائدة من قائمة التحذيرات؟ في النهاية من يريد أن يعيش على وقع برنامج يبدو وكأنه معدّ سلفا حتى لو كان قد أتى من المستقبل، أو للدقة وصل إلى الماضي من الحاضر؟

أظن أن الاستدراك المتأخر أنسب لاستقراء المستقبل منه لمراسلة الماضي. لو كنت مقامرا، قد يفيد هذا الاستدراك. ستفلس الكازينو فورا لأنك تعرف أرقام طاولة الروليت مقدما وستراهن عليها. ستربح من كل مراهنة على مباراة كرة قدم أو سباق خيل. لكن لا الحياة مقامرة ولا هي بمضمار سباق. سباقات الحياة من نوع آخر.

هذا على المستوى الشخصي. لكن الأمر يختلف عندما يراسل المثقف نفسه. المثقف مسؤول، لا عن نفسه فقط، بل عمّا يكتبه من أفكار للناس.

الأمر يختلف عندما يراسل المثقف نفسه فهو مسؤول لا عن نفسه فقط بل عمّا يكتبه من أفكار للناس

مرّ علينا مثقفون تبدّلوا بين الشيوعية والقومية الناصرية والقومية البعثية والخمينية وتلونات الإسلام السياسي والأميركانية. إذا كتب استدراكه المتأخر، فأيّ شاب من نفسه يراسل، الشيوعي أم الناصري أم البعثي أم الطائفي أم المتأمرك؟ أم أن يكون هذا الاستدراك ملامة للذات أو أن ينصحنا بأن نشطب كل تلك الأفكار من عالمنا ونقول: ولا واحدة منها لها معنى.

عندما يتحوّل الاستدراك المتأخر إلى جلد للذات فلا حاجة لنا به. هذا النوع من التفكير هدام. إذا مارسه السياسي كارثة. الزعماء في العموم ليسوا بوارد الاعتذار عن الماضي. هل تتخيل جورج بوش أو توني بلير يعتذران عن حربي أفغانستان والعراق؟ هل بوارد أن يندم جو بايدن عن سحب قواته من أفغانستان وإعادة تسليمه البلد إلى طالبان؟ كيف ستثق الشعوب بقرارات قياداتها في المستقبل لو جاءت قيادات بعد سنين لتعتذر عن قرارات الحرب والسلم، أو الاقتصاد والتنمية والصحة والتعليم؟

في كثير من الأحيان يكون هذا الاستدراك خدعة لفظية يحتمي من ورائها السياسي. خذ مثلا "لو كنا نعلم" التي قالها زعيم حزب الله حسن نصرالله بعد حرب 2006. هل تعلّم هو نفسه من كلامه أيّ شيء؟ تبريرات تقود إلى تبريرات أسخف. تصوروا نصرالله يراسل نفسه. كم من الأقوال المنسوبة للأئمة سيستدعي ليبرّر ما أوصل إليه لبنان؟

مسيرة الحياة هي مسيرة بناء الوعي. أنظر إلى الطفل كيف يمد يده إلى شيء مؤذ وكيف يتعلم ألاّ يكرر الخطأ. الطفل يراكم وعيه بمحيطه فيستنتج، من دون مدرسة أو تعليم، أين تكون مكامن الخطر. إذا أخذته الحماقة إلى تكرار الخطأ مرة، فإنها لن تأخذه إلى تكراره مرتين. وعلى مسطرة الطفل يحتاج مثقفنا أن يقيس. كم يستطيع أن يراكم من وعي، وليس كم يستطيع أن يستذكر ويندم أو أن يتمنى لو لم يفعل أو يكتب. الوعي هو رسالة المثقف للمجتمع وليس الندم.

رسالتي إلى ذاتي ستكون في استذكار المحطات. محطات كثيرة وليست على مستوى أرضي واحد. أو كما يحب أن يصفها صديق بأنها مثل الركوب في عربات الرولركوستر الأفعوانية في مدينة الألعاب: صعود مترقب وهبوط يقطع الأنفاس ولفّات تقود إلى دوران. سأقول إنها كذلك مع محطات، وبعد كل توقف في محطة ينتظرك تصميم جديد محير للعبة الأفعوانية المثيرة. لا شيء تندم عليه ولا استدراك متأخر. حاضر كله تحديات، ومستقبل أجمل ما فيه أنه مجهول.

ماذا سنقول لأنفسنا (لوحة للفنان سمعان خوام)

أوهام التميز.. نرجسيات تركت لنا واقعا ثقافيا وسياسيا فاسدا

نبيل عودة
كاتب فلسطيني

يدّعي بعض المثقفين ومدّعي الثقافة التفوق في كل ما يطرحونه، والويل لمن يعترض على رؤيتهم أو يطرح ما يعارض تفكيرهم. الموضوع يرتبط برغبة تصل إلى درجة الهوس لفرض السيطرة على الآخرين وعلى مجمل الحياة الثقافية، من رؤيتهم النرجسية الواهمة لمكانتهم المميزة في مجتمعاتهم. يظنون أنهم هم أصحاب الرأي الذي لا رأي قبله ولا بعده، هم المشكلون للرأي الاجتماعي العام ولمسيرة الثقافة، هم الناطقون باسم مجموعاتهم السكانية والمعبرون بشكل عام عن تطلعات مجتمعاتهم المستقبلية بكل امتداداتها الإنسانية.

المنطق السليم يفترض أن يساند الأدباء بعضهم بعضا للسير بالأدب ورفع مستواه الإبداعي ليعبر عن تطلعاتنا في الحياة الحرة الكريمة، إن النظرة الدونية للآخرين نمت على قاعدة لا تختلف كثيرا عن الفكر القبلي، حتى لو سمّي ذلك الفكر بتنظيم سياسي.

التنظيمات السياسية في ثقافتنا مارست نهجا لا يمكن ربطه بالمفاهيم الإنسانية للثقافة. نمت لدى البعض الأوهام بالتميز وعمقتها، من رؤيتها أن ذلك يقوي مكانتها داخل مجتمعها ويعزز مكانتها في المنافسة على الأصوات الانتخابية.

ربما في مرحلة ما كان يمكن تبرير هذا التصرف، لكن مع انتشار الثقافة والوعي وانتشار التعليم وإمكانيات النشر أضحى هذا النهج نهجا سلبيا مثيرا للسخرية، بتمسك البعض بأوهام التميز، وهم بكل تفكيرهم وإبداعهم ما دون المتوسط. هذه الظاهرة تجاهلت العديد من المبدعين، الأمر الذي يوجب إعادة تقييم مسيرتنا الثقافية بالتجرد من ربطها بالتنظيمات السياسية والترويج الإعلامي الذي مارسته.

قال أحد القادة السياسيين (وهو في نفس الوقت أديب بارز) في محاضرة له أمام طلاب جامعة: إن الشعراء لدينا هم أربعة (من الواضح أنه يعني أربعة شعراء المقاومة من أعضاء حزبه) لم يذكر غيرهم، وعندما سأله أحد الطلاب "ألا يوجد غيرهم؟" قال "بالنسبة إلينا لا يوجد سوى هؤلاء الأربعة".

المثقفون، الذين تباروا لكسب ود ذلك التنظيم حتى يجعلهم "أدباء مرموقين" (رغم أن بعضهم ما دون المتوسط) بما يوفره لهم من إعلام ووسائل نشر وتوزيع كانت لفترة طويلة مرجعا وحيدا للثقافة العربية داخل إسرائيل، تصرفوا بعقلية لا تختلف عن عقلية القائد السياسي إياه، الذي لا يرى إلا من كان تابعا لحزبه، ويشغل فكره حساب بسيط، مكانته الخاصة، ولتذهب القيم كلها إلى الجحيم.

عشنا هذه المرحلة بكل ما تحمله من نرجسيات تركت لنا واقعا ثقافيا وسياسيا فاسدا. ادّعوا أنهم أصحاب المعرفة الأبرز والإبداع الأرقى ويجب تقييم كل "خربشاتهم" بصفتها أفضل ما يمكن أن ينتجه المرء من ثقافة أو مواقف فكرية، وكل مثقف لا ينتمي إلى تيارهم، أو ينتقده، توجب مقاطعته وتجاهله وشطبه من الثقافة، هذا مع الأسف ساد ثقافتنا في مرحلة تاريخية مبكرة من تطورها وآثاره السلبية تشكل اليوم حالة شاذة يجب علاجها وشطبها من واقعنا الثقافي.

ولا بد أن أشير إلى أني كنت منضويا في نفس التنظيم، عندما كان منارة حقيقة بنيت ثقافتنا على قاعدتها، لكن التطور تجاوز منطقه العتيق، ولم يستوعب ذلك التنظيم التغييرات العميقة في المجال الإعلامي واتساع مساحة النشر، إلى جانب أن إعلامه لم يعد مميزا، بل يتخلف وراء الإعلام الإلكتروني العاصف، وطبعا فقدانه السيطرة على الجيل الجديد من المثقفين الأكاديميين، الذين تجاوزوا فكره الذي بات عائقا أمام انفتاحه وتحرره من جموده العقائدي.

لا أكتب ذلك كتقييم، إنما كمثقف عاش تلك المرحلة وكان ناشطا بإطار سياسي لعب دورا مركزيا بفرض رؤيته والترويج لمثقفيه والسيطرة على وسائل النشر والإبراز لأسماء دون غيرها، ليس على قاعدة ثقافية تنويرية، بل حسب مصالح تخدم في النهاية تنظيما سياسيا وفكره، مع كل تقييمنا لدوره الإيجابي في مرحلة تاريخية ما، إلا أنه مع الوقت أضحى عاملا سلبيا مسيئا للواقع الثقافي وتطوره، طبعا التاريخ لا يتوقف عند رغبات البعض لذا بات من الضرورة إعادة تقييم واقعنا الثقافي بعقلانية.

المثقفون يتبارون لكسب ود التنظيمات حتى تجعلهم «أدباء مرموقين» بما توفره لهم من إعلام ووسائل نشر وتوزيع

بالطبع هناك مجموعة من المثقفين غير دارجة أسماؤهم للأسف الشديد بشكل بارز في ثقافتنا العربية. ربما نتيجة الواقع العربي وعلاقة المثقف مع سلطة تعدّ عليه حتى أنفاسه. هناك مثقف مختلف نوعيا، وجوده نادر في مجتمعاتنا، يحدثنا عنه الفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي، انه "المثقف العضوي"، أي المرتبط، أو المنغمس بقضايا الجماهير التي كرّس نفسه لخدمتها، وليس بإطار حزبي ضيق يحدد متطلباته من مثقفيه.

كان لطرح غرامشي فهم حزبي ضيق. المثقف كما طرحه غرامشي على استعداد لدخول السجون، النفي، المعتقلات ولن يتراجع عن إخلاصه لقضية الجماهير التي كرّس حياته بقناعة صلبة من أجل خدمتها. ما عدا فئة المثقفين التنويريين، الذين يحملون دماءهم على أكفهم لا نجد داخل ثقافتنا العربية التي عانت ولا تزال تعاني نسبيا من حصار ثقافي، هنا وفي العالم العربي، إلا قلة من أمثالهم... واضح أن الكثير من المثقفين يضطرهم الزمن العربي الأسود للهجرة إلى الدول الغربية، حيث يمارسون نشاطهم الثقافي والفكري والنقدي بحرية لا تتوفر لهم في أوطانهم.

إن وضع الحريات للمثقف العربي في تراجع منذ عهد الطهطاوي في منتصف القرن التاسع عشر... وما أحدثته الثورات العربية القومية، لا أجد له انعكاسا اليوم على الساحة الثقافية. بل أجد اختلالا بالموازين القديمة وتراجعا شاملا على المستوى التنويري. من المؤكد أن إلغاء الحريات السياسية في الدول العربية قد أضر بالحالة الثقافية، وخلق مثقفين سلطويين تركوا آثارهم السلبية على مسيرة الثقافة والتنوير العربي.

هل بالصدفة أن الثقافة العربية في المهجر أضحت في طليعة الثقافة العربية؟ وهل من ضرورة لنثبت أن مساحة الحرية والتعددية الثقافية والفكرية وحرية النشر هي القاعدة التي جعلت ثقافة المهجر منارة ثقافية راسخة نحلم أن تنعكس بكل ثرائها في واقعنا الثقافي؟

الأدب هو شكل من أشكال النشاط الجمالي والإبداعي للإنسان، والأهم أنه شكل من أشكال الوعي الاجتماعي للواقع الذي يعيشه الإنسان بكل امتداده، مُعبّرا عنه بالتخيل أو بالدمج بين الخيال والواقع. لا أدب خارج المجتمع البشري وخارج الواقع الاجتماعي. لا أدب دون مجتمع بشري يعي حقوقه ويجعل أدبه جزءا من نضاله التحرري، أو لخدمة قضية صادقة وإنسانية. ولا بد من التأكيد أن للأدب دورا جماليا، فكريا، تربويا، فلسفيا وسياسيا بالغ الأهمية في حياة المجتمعات البشرية وصيرورتها. لذلك تجاهل أسماء مبدعين لا يخدم تطوير ثقافتنا، بل يدخلنا في صراعات مختلفة لا تخدم ثقافتنا، بل تنظيمات نفعية وبعض الانتهازيين.

ص10 وص11 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

لا أدب دون مجتمع بشري يعي حقوقه (لوحة للفنان عمر فهد)